مقدّمة المترجم

فقيه متصوف في زمن الاستعمار

الفقيه والسلطة الاستعمارية

إنَّ الوقوف أمام سيرة رجل كأشرف علي التهانوي (1863-1943م) هو استنطاق لروح عصر بأكمله، ومحاولة لفهم عبقرية النضال النفسي والفكري الذي خاضه علماء الهند المسلمون في أعتى عصور الصدام بين تراث الأمس وضغوط اليوم. فما كان التهانوي فردًا فحسب، بل كان محورًا دارت حوله حركة الإصلاح والتربية في قلب الهند إبان الحقبة الاستعمارية، تلك الديار التي كانت تموج بتيارات شتى؛ تيار استعماريٍّ يملك قوة القهر وبطش الأنظمة، وتيار حداثيٍّ يرى في الغرب قبلته الجديدة، وتيارات دينية متصارعة تنشد كلّ واحدة منها امتلاك ناصية الحقيقة.

وُلد التهانوي في حقبة التمزّق العظيم حين كان الاستعمار البريطاني يُعمل مباضعه في جسد الشخصية الهندية، وحين انقسم المسلمون بين متشبث بالقديم في ذُعرٍ، وبين فانٍ في الحديث في ذهول. وهنا تجلّت بصيرةُ التهانوي؛ فلم يكن رجل سياسةٍ بالمعنى التقليدي الذي يطارد المناصب، بل كان رجل المبدأ الذي يرى أنَّ الإصلاح يبدأ من باطن الفرد ليُقيم بناء الجماعة.

كان التهانوي «فقيه نفس» يرى أنَّ الانغماس في الحركة السياسية دون ضابطٍ

شرعي هو نوعٌ من الفناء في الغير وضياعٌ للذات. وفي عصر «حركة الخلافة»، حين جرف الحماس الجماهيري كبار العلماء، وقف التهانوي وقفة «المتأمل المستريب»؛ لا كراهية في الخلافة، بل خشية من أن تتحول العاطفة الدينية إلى أداة في يد قوى لا تؤمن بالدين أصلًا، أو أن يضحِّي المسلمون بخصوصيتهم العقدية في سبيل تحالفات ضرورتها سياسية وضررها ديني. لقد أدرك أنَّ الاستعمار البريطاني ليس محض جيش يحتل الأرض، بل هو نظامٌ معرفي يسعى إلى استتباع العقول. وفي مواجهة ذلك، كانت «القومية الهندية» الجامعة التي تضم المسلمين والهندوس تبدو في نظره فخًّا يؤدّي حتمًا إلى ذوبان الهوية الإسلامية في بحر الأغلبية. لقد آمن بأنَّ المسلم في الهند ليس محض مواطن في دولة، بل هو حامل رسالة في بيئة مغايرة، فإذا ذابت الفوارق التي تميّزه، فقد مبرّر وجوده التاريخي.

رأى التهانوي في الشريعة «الحارس الأخير»؛ لأنها الحصن الذي لا يملكه المستعمِر ولا يستطيع الفكر العلماني اختراقه. فحين يلتزم المسلم بعباداته ومعاملاته، وتميّزه الظاهر والباطن، فإنّه يمارس أقصى درجات المقاومة؛ لأنه بذلك يظل مستعصيًا على الترويض البريطاني. وكان يرى أنَّ الأمة التي لا تملك زمام نفسها ولا تنضبط بشريعة ربها، لن ينفعها استقلالٌ صوري ولن تنقذها ثورة عارمة.

ينهض هذا السفر الذي سطره الباحث الباكستاني محمد قاسم زمان على ركيزة «المركزية المنضبطة»؛ إذ يبدو العالم في نظر التهانوي -كما يجلوه لنا زمان- بمعزل عن الفرار أو الانكفاء، بل هو ميدانٌ فسيحٌ لإجراء أحكام «التقنين» وممارسة الضبط الشرعي. وهنا تبرز عبقرية الرجل في قدرته الفائقة على «تطويع» التراث الفقهي العظيم ليجيب على أسئلة عصر الاستعمار، دون أن يفقد النصّ هيبته، وحذرًا من العزوف عن موجبات الواقع. إنَّ هذا الكتاب يثبت أنَّ التهانوي كان يمثّل حائط الصد الأخير ضد تذويب الشخصية الإسلامية في قالب الحداثة.

الصوفيّ الفقيه

تُعد شخصية أشرف علي التهانوي واحدةً من أبرز الشخصيات التي صاغت وجه التصوف في جنوب آسيا الحديثة؛ حيث سعى إلى تقديم أنموذج لما يمكن تسميته بـ «الصوفي الفقيه»، وهو منهجٌ يدمج بين صرامة النصّ الفقهي وعمق التجربة الروحية. لم ينظر التهانوي إلى التصوف باعتباره علمًا مستقلًّا أو موازيًا للشرع، بل جادل طويلًا بأنَّ «الطريقة» و«الحقيقة» هما في جوهرهما جزء لا يتجزّأ من الشريعة. وقد انصب جهده على تنسيق الفكر الصوفي ليجري على سنن الأحكام السنيّة الديوبَندية دون اختلاف، وقد عدَّ أي ادعاءٍ صوفي لا يجد مستندًا في الوحيين ادعاءً باطلًا صراحًا.

تميّزت خانقاه التهانوي بصرامة بالغة ونظام دقيق؛ إذ كان يرفض التصوف القائم على الكرامات أو الوجد غير المنضبط. ركز التهانوي على «الأفعال الاختيارية» للسالك، وقد عدَّ التصوف تمرينًا وإرادةً وليس محض تجارب غيبية. واستخدم تقنيات حديثة كالمراسلات والطباعة لتوثيق تجارب المريدين؛ مما ساعده على جذب النخبة المتعلِّمة التي وجدت في منهجه عقلانية ومنطقًا منظمًا.

ومع محاولته ربط التصوف بالفقه، إلا أنَّه دافع عن رموز التصوف الحلولي مثل ابن عربي والحلّاج. والحقيقة أنَّ دفاعه عن هذه الشخصيات لم يصدر عن محض إعجاب، بل كان مدفوعًا بـأهداف منهجية تتعلَّق بهوية المذهب الديوبَندي ومستقبل التصوف في الهند. ومن ذلك الحفاظ على «وحدة سلسلة التقليد الصوفي»؛ فبما أنَّ شيوخ التهانوي كانوا يُجلّون ابن عربي، فإنَّ الطعن في هؤلاء كان سيمثّل شرخًا في شرعية السلسلة الصوفية الديوبَندية. كما أراد نفي «السلفية» عن نفسه؛ فقد كان خصومهم من البريلوية يتهمونهم بمعاداة الأولياء؛ لذا كان الدفاع عن الحلاج وابن عربي وسيلة لتأكيد تمسكهم بالتصوف الأصيل وإثبات أنَّهم وسطيون وليسوا جفاة.

وتأسيسًا على ما تقدّم بذل التهانوي جهدًا كبيرًا في رد الاعتبار للشخصيات الصوفية المثيرة للجدل لدمجهم في الإطار السني. فقد تبنّى رؤية مفادها أنَّ كثيرًا من ممارسات الصوفية ليست «مقاصد»، بل هي «تدابير» علاجية يُشبّهها بواجب الطبيب. وبناءً عليه، فإنَّ الصوفي قد يأتي بأفعال لا مستند لها في مأثور الوحيين لأنها محض

وسيلة لتربية النفس. اعتمد التهانوي تفريقًا بين ما يدخل تحت إرادة الإنسان وما يخرج عنها. وفي حالة الحلّاج، خلص إلى أنه كان صوفيًّا غلبت عليه «الأحوال»، فكان ما صدر عنه غير إرادي، وبالتالي فهو معذور شرعًا، وإن كان لا يجوز الاقتداء بفعله.

كما رأى أنَّ الشرع يحمل عبئًا أثقل من التصوف؛ فمهمّة الشريعة هي إخبار المسلمين بأوامر الله تعالى بدقة. أما التصوف، فهو فضاء يتمتع بالسعة، حيث يمكن التماس الأعذار لأرباب الوجد، طالما أنَّ الالتزام العام للشخص يظل في إطار الإسلام صراحًا. وعلى مُقتضى النظر الفقهي، تتجلّى عبقرية التهانوي في رسالته «الحيلة الناجزة». فعندما أُلجئت النساء إلى «الردة» لفسخ عقود نكاحهن -بسبب غياب القضاة المسلمين- قدّم فتوى فقهية جريئة عبر استعارة أحكام من «المذهب المالكي». كانت هذه الفتوى فعلًا سياسيًّا بكل أكادة ويقين؛ فقد كشفت عن قدرة العلماء على ملء الفراغ المؤسسي. وكان اقتراحه إنشاءَ «لجان المسلمين العُدول» هو محاولة لحفظ الاستقلال القانوني والفقهي للمجتمع.

أهمية الكتاب والمنهج في الترجمة

قليلة هي الكتب في المكتبة العربيّة التي تتكلّم عن التهانوي وآثاره، لا سيما أنَّ جلّ آثاره كُتبت بالأردية ولم يُنقَل معظمها إلى العربية، ومع أنَّ هذا الكتاب خفيف الحجم إلا أنَّه يتطرّق إلى أوجه جمّة من فكر التهانوي إبّان الفترة الاستعمارية في الهند، فقد تناول محمد قاسم زمان السياسة والفقه والتصوف عند التهانوي معتمدًا على شبكة واسعة من المصادر؛ حيث استقى الأقوال المباشرة للتهانوي وتفاصيل حياته اليومية من «أشرف السوانح»، وهو السيرة الرّسمية التي كتبها أحد تلامذة التهانوي وهو «عزيز الحسن»، وكذا كتاب «الإفاضات اليومية»، وهو موسوعة تقع في عشرة مجلدات فيها ملفوظات التهانوي خلال جلساته الخاصّة والعامَّة عام 1932 م. كما لجأ «زمان» إلى المؤلفات الفقهيَّة للتهانوي بغية تحليل مشروع التهانوي في تقنين الفقه ومواجهة الاستعمار، ومن تلك المؤلفات، «**حلية أهل الجنة**» [بهشتي زيور] وهو المصدر الأساس عند التهانوي لمحاربته للأعراف المحليّة ومحاولته بناء ثقافة نصيّة

لدى النساء. كما يعمد إلى رسالة «الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة» -التي شكّلت أساس إصلاح قانون الطلاق في الهند- لتحليل كيفية تعامل التهانوي مع المذهب المالكي والضرورة الفقهية التي ألجأته إلى ذلك. ولا يغفل «زمان» اللجوء إلى فتاوى التهانوي «إمداد الفتاوى» التي تعكس اشتباكه مع القضايا الاقتصادية والاجتماعية المستجدّة، ومما هو حقيق بالبيان أنّ معظم تلك المصادر حبيسة اللغة الأردية ولم تترجم بَعد إلى العربية. وتأتي أعمال التلاميذ ضمن المصادر مثل «إعلاء السنن» لظفر أحمد العثماني الذي يُجلي كيفية دفاع الديوبَندية عن المذهب الحنفي وربطه بالحديث النبوي، وكذا «القول المنصور في ابن منصور» الذي استخدمه المؤلف لتحليل موقف التهانوي من الحلّاج، وغير ذلك من كتابات التلاميذ.

كما وضع «زمان» التهانويَّ ضمن سياقه التاريخي عبر الاعتماد على دراسات «باربرا ميتكالف» حول حركة ديوبَند والإحياء الإسلامي في الهند إبّان الاستعمار، وأعمال «فرانسيس روبنسون» حول علماء فرنجي محل والتنافس بين المشارب الدينية المختلفة، وغير ذلك من الأعمال الغربية التي تبيّن بجلاء تنوّع مصادر «زمان». ومع ذلك لا يقبل هذه المصادر باعتبارها حقائقَ مسلَّمة، بل يُحللها نقديًّا، على سبيل المثال يشير إلى أنَّ الروايات المتأخرة حول دور مؤسسي ديوبَند في ثورة 1857م قد تكون إعادة بناء تاريخي لشرعنة مواقف سياسة لاحقة.

وقد آثرتُ في هذا العمل المترجم تيسير سبل البحث والتوثيق أمام القارئ؛ فعمدتُ إلى استيفاء بيانات المصادر والمراجع التي يذكرها المؤلف في المتن مجملةً (على طريقة التوثيق المختصر: المؤلف والسنة)، فأدرجتُ إحالاتها الكاملة في هوامش الصفحات لأول ذكر، أما إذ كرّرها المؤلف ذكرتها مختصرة كما أوردها. وقد اتّبعت منهجيةً تميز بين طبيعة المراجع؛ حيث أبقيتُ المراجع الأجنبية (الإنجليزية) بلغتها الأصلية لضمان دقة الاسترجاع البيبليوغرافي، في حين عرَّبْتُ المصادر الأوردية؛ مع ذكر الأصل الأردي.

أدرجتُ في المتن بعض الكلمات القلائل بين معقوفين [ ] متى رأيت ذلك ضروريًّا لضبط المعنى أو اتّساق الجملة، ولم أُكثر من ذلك؛ إذ لم يأت إلا في مواضع محدودة

اقتضاها التوضيح دون تدخُّل في أسلوب المؤلِّف أو فكره، وحرصت في نقل هذا الكتاب إلى العربية، على أن أوازن بين أمانة النصِّ الأصلي ودلالات السياق التاريخي والفكري الذي كُتب فيه؛ فلم تكن الترجمة عندي محض نقل للألفاظ، بل إعادة بعث للفكر في لسان آخر، يحفظ نَفَس المؤلف ووضوحه الأكاديمي، ويُكسب عبارته سلاسة العربية الكلاسيكية ورصانتها. كما علّقتُ على النصّ في بعض المواضع القليلة في الهامش وقد ميَّزت كلامي بوضع كلمة (المترجم) في نهاية الفقرات. وقد أعدتُ ترتيب قائمة المراجع، حيث فصلت المراجع الأردية والعربية عن المراجع الإنجليزية.

وفي الختم، أؤمِّل من ربي سبحانه وتعالى أن تكون هذه الترجمة بيانًا جليًّا لفكر التهانوي، فما كان من سداد فمن فيض كرمه، وما كان من زلل فمن عيِّ نفسي وقصور نظري.

باهر سليمان